

## الفصل الحادي عشر

### الحقيقة فى فن الرباعى ورباعيات الخيام

الرباعية أو فن الرباعى ابتداء فارسى من أصل عربى، والذين توفروا على هذا الفن هم الشعراء الفرس المستعمرية، أو الذين ينحدرون من أصول عربية، وذلك لأن هذا الفن يقوم على بحر الهزج من العروض العربى، فلما كانت الرباعية تتألف من أربعة أشطر، وكل شطر منها من أربع تفعيلات، فيكون البيت من ثمانى تفعيلات، وبحر الهزج ليس ثمانياً، فإنهم اعتبروا الشطر بيتاً، وبذلك يكون البيتان من الشعر (الدوبيت) ليسا بيتين على الحقيقة، ولكنهما أربعة أبيات، أو ما أطلقوا عليه بالفارسية اسم «رباعى».

والرباعى يُشَدُّ كالمواويل، وهو من الفنون الشعبية، وروَّج له الصوفية، إن لم يكونوا هم أصلاً الذين ابتدعوه.

وشعراء الرباعى الذين عُرفوا به فى الأدب الفارسى أربعة هم بالترتيب: أبو سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠هـ، وبابا طاهر الهمدانى المتوفى سنة ٥٢٦هـ، والشيخ عبد الله الأنصارى المتوفى سنة ٤٨١هـ، وعمر الخيام، وقد أُلحنا إلى أن وفاته فى الربيع الأول من القرن الخامس الهجرى. والثلاثة الأول من مشايخ الصوفية الكبار، وشعرهم الرباعى الصوفى من التراث الأدبى الشعبى، وقُدِّمَ فيه الشاعر الصوفى المصرى الأشهر عمر بن الفارض (٦٣٢هـ)، فقد كان القوالون يُنشِدون شعر أبى سعيد الأنصارى بين يديه، وكان يهتز له طرباً فيبتدع من نفس البحر مشايحاً لهم، ولهذا قيل إن ابن الفارض كان أول من أدخل فن الرباعى من شعراء العرب.

ولعل انتساب الشعراء الثلاثة - أبى سعيد والهمدانى والأنصارى إلى التصوف، يجعلنا نميل إلى أن نظن بالخيام ميولاً للتصوف كذلك، طالما أنه يأتى تاريخياً بعدهم وورث عنهم هذا الفن ويتابعهم عليه، وكان من مدرستهم.

ويروى فى ابتداء فن الرباعى أن الأمير يعقوب بن الليث الصفَّار شاهد ولده الصغير يلعب الجوز مع أقرانه، فالقى بجوزته وأثناء جريانها كان يقول مع حركتها «غلتان غلتان همى رود تابن كو»، أى تذهب متدرجة متدرجة إلى أن تدخل الحفرة وتستقر. وأعجب الأب بابنه فقد كانت مقالته موزونة، واعتبر صدورها منه بالسليقة الشعرية، فلما قصَّ القصة على جلسائه من أهل الأدب أيدوه على زعمه - كما يقول دولتشاه صاحب تذكرة الشعراء الذى أورد القصة - وردوا عبارة الصبى إلى بحر الهزج من بحور العروض العربية، وزادوا على

العبارة شطراً ثانياً ليجعلوها بيتاً، ثم أكلوا البيت بيت من نفس الوزن والقافية، وقالوا عن ذلك **دوبيتي**.

وتفنن الشعراء في أوزان الهزج فجعلوها أربعة وعشرين، ولم يوجد شاعر - مهما عظم شأنه أو قل - إلا ونُسبت إليه رباعيات. واستخدم هذا الفن في الأقوال الشعرية المرسلّة ذات الفكرة الواحدة، وللتعبير عنها بإيجاز شديد، وكانهم يجعلون من الفكرة حكمة. ثم فرّقوا بين فن **الدوبيتي** وفن الرباعي، فرغم أن هذا وذاك يتكون من أربعة أشطر، إلا أنها في الرباعي يُشترط أن تكون على أيّ من الأوزان الأربعة والعشرين من الهزج، وإلا فهي من **الدوبيتي**. فإذا كانت الأشطر من هذا البحر وكانت كذلك مقفأة فالرباعي يسمى كاملاً، وإن شذّ المصراع الثالث عن المصاريح الثلاثة الأولى والثاني والرابع فهو الرباعي **الأهرج**.

ولعل سهولة التأليف في الرباعي لقصره وخفة أوزانه واشتماله على فكرة واحدة، جعل من الممكن انتحاله على الشعراء والإكثار منه. والخيام مثلاً يذهب الثقات إلى أنه لم يؤلف في الرباعي إلا ما بين العشر إلى الأربعين، وربما الستين رباعية. ومع ذلك نُسبت إليه آلاف الرباعيات، حتى قيل إن إحدى مخطوطات جامعة **كيمبردج** حوت ثمانمئة رباعية. وقدّر **المستشرق روزن** أن الرباعيات في جملتها قد تصل إلى خمسة آلاف رباعية. وهذه الظاهرة نفسها تتكرر مع أغلب شعراء الفرس وعانى منها أبو سعيد بن أبي الخير فأنكر عليه البعض أن تكون له رباعيات، وأكثروا أن ما ينسب إليه منحول عليه، وأنه لم يكن شاعراً أصلاً، وأثبت له البعض ما بين ثلاثين إلى ستين رباعية.

والثابت أن الكتب القديمة لم تتحدث عن الخيام كشاعر، وإذا ذكرته بهذه الصفة فقلماً تورد له شيئاً. ويبدو أن **العماد الأصفهاني** المتوفى سنة ٥٩٧هـ كان أول من نبه إلى أن له شعراً عربياً، وأورد له ثلاثة أبيات ذكرها في كتابه «خريدة القصر»، ثم كان **فخر الدين الرازي** المتوفى سنة ٦٠٦هـ أول من أورد له شعراً فارسياً، وكان ذلك في كتابه «التنبيه على بعض الأسرار الموهبة في بعض سور القرآن العظيم»، ولم يتعد ما قدّمه له الرباعية الواحدة. وأخيراً كان **الشهزوري** هو أول من أكد شاعرية الخيام في اللغتين العربية والفارسية معاً.

والمخطوطات التي تُكتشف وتُنسب إلى الخيام يتزايد عددها باستمرار، وكلما اكتشفت مخطوطة تبين أن بها عدداً جديداً من الرباعيات لم تضمه المخطوطات الأخرى. والنسّاج والميول والأهواء تلعب دورها في إنقاص أوزيادة العدد، وفي نسبة ما يشاؤون من الرباعيات.

والحذف والإبدال والإدخال ظواهر مؤكدة فى شعر الخيام. والبحوث فى مجال هذه المخطوطات كثيرة، والرباعيات التى تشتمل عليها متفاوتة، والتواريخ التى تعود إليها شديدة التباين، حتى قال أحد النقاد الفرس إن هناك فيما يبدو ما يشبه المصنع فى طهران لفبركة هذه الرباعيات التى تعجب الباحثين الغربيين ويجزلون فى ثمنها العطاء. وانتقى أحد الباحثين وهو الروسى زوكوفسكى ١٢١ رباعية قال إنها القاسم المشترك بين كل المخطوطات وتتردد فيها جميعا تقريبا، ويُنَّ أن ما لا يقل عن ٨٢ رباعية قد وردت فى مخطوطات وكتب أخرى منسوبة إلى شعراء من الفرس، وأن النصف تقريبا من هذا العدد من الرباعيات اشتهر به ثلاثة وهم فريد الدين العطار وحافظ الشيرازى وجلال الدين الرومى، والنصف الآخر عثر على ما يشبهه عند ابن سينا وأبى سعيد بن أبى الخير والعسجدى ونصر الدين الطوسى والفردوسى والأنورى وعبد الله الأنصارى، وأطلق عليها لذلك اسم الرباعيات الجائلة أو العاردة Wandering Quatrains لأن مؤلفها غير معروف يقينا.

وأدى التضارب فى عدد الرباعيات والإنكار لبعضها بمناسبة القبح الذى عليه، والشك فى بعضها - أدى إلى أن يعلن شيدر أحد علماء الاستشراق الألمان فى مؤتمر الاستشراق ببيون سنة ١٩٣٤ «أن الحكيم والعالم الرياضى عمر الخيام لم يؤلف رباعيات. وأن هذه الرباعيات المنسوبة إليه هى صورة من الشعر الباطنى الذى اشتهر عن العصر الذى سيطر فيه القول وشاع فيه الفساد أيام حكم آل سلجوق، وأنه قد أن الأوان أن يُفلق ملف الخيام الشعرى للأبد، وأن يحذف اسمه من تاريخ الشعر الفارسى».

وهذا الإنكار للرباعيات الإباحية تولاه مستشرقون، وقد هالهم أن الاكتشافات بخصوص المخطوطات قد زادت حتى بلغ عدد المخطوطات أكثر من مائة مخطوطة.

والغالب أن النساخ كانوا كلما أعجبتهم رباعية فيها إحداح وحاروا لمن ينسبونها، استسهلوا أن يرجعوها إلى الخيام. والغالب أيضا أن المقلدين للخيام كثروا من كل المذاهب، وكانوا ربما من أهل الفلسفة، أو من اللادريين، أو الشكّاك، أو الملحدّين، وبعضهم ربما كانوا من المُجّان وأرادوا التغنى بالخمير والهوى، أو قد يكونون من المتصوفة الذين أعجبتهم الرباعيات الخمرية وألوهوا تأويلات تعجبهم فنسجوا على منوالها، أو ربما كانوا من الرّهّاد فآلفوا على طريقة الخيام رباعيات تزدرى الدنيا وتحط من شأنها. وكل ذلك قد اختلط برباعيات الخيام نفسه حتى ماندري ماله وما ليس له، وأدرجت ضمن رباعياته كل رباعية

شاردة لم يعرف لها صاحب، أو كان صاحبها مغموراً واعتبرت مجهولة النسب فالحقت بالخيام. وتلك جريمة النساخ الذين لم يقوتوا شيئاً مما يمكن أن يُنسب إليه، وأضافوا إلى الرباعيات كل ما اعتقدوا أنه يمكن أن يكون للخيام، طلباً للكمال ربما، أو برجاء الاستكمال - هذا جائز. وحرّفوا البعض لتمام المعنى أحياناً، أو إنكأته أحياناً.

ويذهب البعض بعد التمهيص الشديد - مثل محمد على فروغى فى كتابه ربايعيات حكيم خيامى نيسابورى - إلى أن الرباعيات التى يمكن نسبتها حقاً إليه هى ست وستون رباعية، رواها أقوام من الفرس أقدم عهداً من أقدم نسخة متاحة من الرباعيات، فما كان من الرباعيات مناسبة لهذه الست والستين أضيف إليها، وما لم يكن مناسباً فهو لغير عمر الخيام.

ويقول فروغى إن هذا الرباعيات الست والستين التى يصح الاعتقاد أنها للخيام، تبدو بسيطة لا زواق فيها ولا تصنع، بل إنها لينقصها الخيال الشعرى حتى ليكن أن يقال إنها لاتملك من الشعر غير الوزن والقافية، ومع ذلك فهى فى غاية الإيجاز والإحكام والبلاغة، وتتقيد بأداء المعنى، ومعانيها تطف وتدفق حتى لتسمو على كل تصنع وتكلف، ومضمونها لا يمكن إلا أن يكون لحكيم متفكر. ويكتفى فروغى بأن يجعل من الرباعيات ما لا تكرر فيه، وما يليق بطبع الخيام المتفلسف، وهذه لا يزيد عددها عن ١٧٨ رباعية.

ويبدو أن منهج الاصطفاء هذا هو: المنهج الأمثل فى التعامل مع المخطوطات، ومع مانسمع من رباعيات تُنسب إلى الخيام. والمقصود بهذا المنهج أن نصطفى مما يقال الذى ينسجم مع التاريخ العلمى للخيام، ومع ما قيل فى شخصيته، ومع رسالاته الفلسفية - وذلك هو الأهم - فهذه الرسالات هى المعيار الحقيقى الذى لابد أن تقاس إليه أفكار ومضمون أية رباعية - فما لا يتفق مع الفلسفة التى تبشر بها، والتوحيد الذى تدعو إليه، والإيمان الذى يشيع بين ثناياها، والأخلاق التى تحض عليها - أقول ما لا يتفق وكل ذلك فلا بد من رفضه والإنكار عليه وبحضه ونبذه!

\*\*\*\*\*